



العمارة الجنائزية النوميديّة ضريح مدغاسن¹ نموذج معماري نوميدي أصيل

د. محمد العربي عقون
أستاذ محاضر (جامعة منتوري، قسنطينة)

ملخص

تهدف هذه المقالة إلى تقديم موضوع على جانب كبير من الأهمية، لا يزال الغموض يلقي عليه ظلاله، ويتعلق الأمر بإحدى التحف المعمارية للشمال الأفريقي القديم وبالتحديد ذلك المعلم الفخم الذي هو مدغاسن أو ضريح الملوك النوميدي. إنه معلم فريد في نوعه، كان ولا يزال علامة فارقة ومتميزة. والسؤال المطروح يتصل بمعرفة ما إذا كان حقاً أصل لعمارة نوميديّة صرفة؟

إن هذه الورقة تبرز هوية المعلم عبر تتبع تفاصيله المعمارية، وقد توصلنا إلى النتائج التالية:

- إن المدغاسن هو شكل معماري فريد في نوعه وشكله، وهو تطور معماري للبازيना التي تجسّد معتقدات دينية نوميديّة.

- إن هذه البيانات تذهب في اتجاه إثبات الهوية النوميديّة لهذا المعلم الرمز وتفنيد آراء بعض الباحثين الذين يفتقرون إلى الموضوعية بسبب عملهم تحت تأثير نزعة معادية للهوية الحقيقية للمعلم.

الكلمات الدالة: ضريح مدغاسن، العمارة النوميديّة، التاريخ القديم للشمال الإفريقي، الحفريات.

مقدمة

هذا الضريح الملكي كما هو معروف يقع في المنطقة الأوراسية في الشرق الجزائري،

1 - وقع اختلاف في رسم اسم مدغاسن فقد كتبه الكولونيل برينون بهذا الشكل : Medras'en ، وكتبه المهندس المعماري بيكر بهذا الرسم Medr'asen وهو الأقرب فقد جرت العادة أن تكتب الغين راء بعدها فاصلة علوية هكذا : 'R ، أما الضابط فوي فقد كتبه هكذا Medrazen وأخيراً اعتمد من جاء بعد هؤلاء الصيغة Medracen. وكان ضبط هذا الاسم محل نقاش، واجتهادات بعضها سطحي يفتقر إلى معرفة عميقة باللغة الأمازيغية، فقد كتبت الغين راء (Medracen) كما نرى من قبل رواد البحث الأثري الفرنسيين لأن الراء في فرنسية تطلق غيناً، وهذا الرسم قد بعض المجتهدين إلى الخطأ في المقاربات اللغوية التي أجروها، وكتب بعضهم السين كافا (C) وهذا الخطأ الثاني، كما أن بعض الخدثين المهتمين اعتبروا الاسم صيغة جمع فأضافوا إليه الألف المهموزة (إ) في البداية هكذا : إمدغاسن، وهذا الخطأ الثالث، وكان من المنهجي مقارنة الاسم بأسماء الأعلام النوميديّة (مكوسن، غولوسن، ماسنسن) بل وحتى أسماء من الفترة الإسلامية (يغمراسن مؤسس دولة بني زيان) المماثلة له في صيغة اسم فاعل Participe présent مضافة إليه اللاحقة سين ونون، وعليه نرى أن الاسم قد يكون ملك من الأسرة الماسيلية لم تذكره المصادر، والسين في آخر الكلمة في الأمازيغية هو ضمير الغائب المفرد والتون للجمع كما هو معروف، ولهذا يجب الحذر وعدم التسرع عند إجراء أي مقارنة لغوية.

5. بن بركة المهدي، (د.ت): الاختبار الثوري.

6. الخطابي محمد العربي، (1955): "محادثات إيكس - لبيان - السيادة والاستقلال هما صلب المشكلة المغربية، مجلة المعرفة، تطوان، العدد 111، المغرب.

7. عبد الله الطاهر، (1967): الحركة الوطنية التونسية، مطبعة الجماهير، بيروت، لبنان.

8. الفاسي علال (1990): الديمقراطية وكفاح الشعب المغربي من أجلها، منشورات مؤسسة علال الفاسي، إعداد عبد الرحمن بن العربي الحريشي، مطبعة الرسالة، الرباط، المغرب.

9. الفاسي علال (د.ت): نداء القاهرة، ط، (د.ت.ط.).

10. الفاسي، علال، (2006): رسائل تشهد على التاريخ، ج 1، منشورات مؤسسة علال الفاسي، تقديم و تنسيق شبيبة ماء العين، مطبعة الرسالة، ط 2، غشت 2006، المغرب.

11. مجلة ملفات من تاريخ المغرب، (1996): العددان 1 و 2، المغرب.

ما بين بلدتي المعذر وعين تاقوت في إقليم بلدية بومية (ولاية باتنة)، وهو معلّم أثري هام لأنّه أحد الشواهد القليلة الباقية - من الحضارة النوميديّة - التي ظلت صامدة على مرّ الأيام، مع أنّ وضعه الحالي في غاية التدهور، وإذا لم تسرع الجهات المعنية إلى إنقاذه فسينهار ويصبح أثرا بعد عين.

شيّد هذا المعلم في مكان مفتوح على منخفض سبخة الجندلي - التي أشارت إليها المصادر الرومانية باسم Lacus regius أي البحيرة الملكية ولعلّ ذلك إشارة إلى قربها من الضريح الملكي - ويتوسّط المكان مابين جبلي عازم وتافراوت (ش1).

يقع الضريح على بعد حوالي 100 كلم جنوبي قسنطينة وحوالي 40 كلم شمال باتنة، على محور الطريق التقليدية بين الأوراس وسيرتا، ويمكن أن يُرى من أماكن بعيدة رغم علوه الذي لا يكاد يصل العشرين مترا، وتقرّ بجانبه طريق معبّدة متفرّعة على الطريق الوطني رقم 3 قسنطينة - باتنة، تمكن الزائر من الوصول إليه دون أدنى صعوبة.

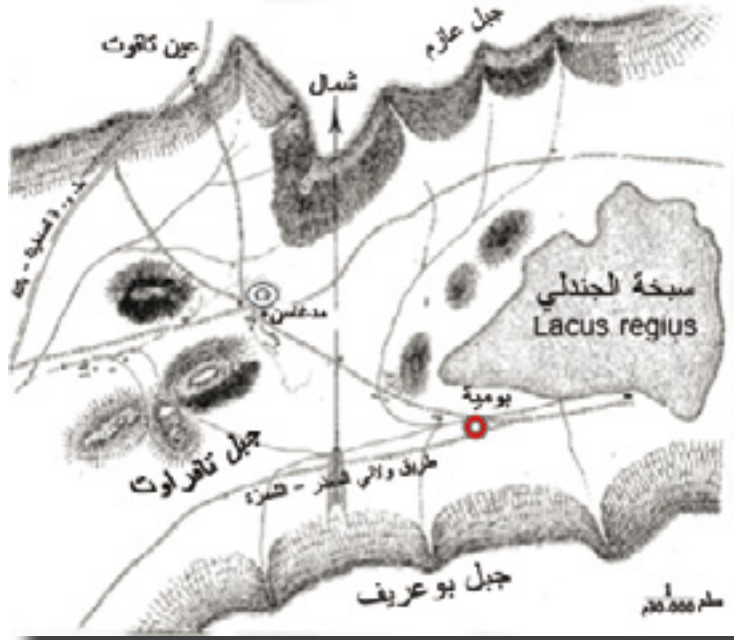
1 - اهتمامات المؤرخين القدامى والمحدثين

كان هذا الضريح موضوع اهتمام عدد من الباحثين وحتى الهواة من ضباط جيش الاحتلال الفرنسي، على امتداد القرنين التاسع عشر والعشرين، ولذلك كان محلّ آراء واستنتاجات متأثرة بالأفكار والرؤى الماكرة للتوسع الفرنسي في أفريقيا الشمالية التي اكتشف فيها هؤلاء ثراء التاريخ الذي افتقدوه في بلدهم الأمّ، فكان هاجس روما دائما وراء كل تحركاتهم وكتاباتهم، مع أنّ هذا المعلم لا يلبي رغباتهم لأنّه يحمل هوية البلاد وفتّها المعماري الأصيل قبل أن تطأ أقدام الرومان أديم الأرض الأفريقية²، ومع أنّ هذا المعلم لا نجد له ذكرا في المصادر الإغريقية واللاتينية إلا أنّ المصادر العربية أشارت إليه³، فهذا ابن خلدون ينقل إلينا الرواية التي احتفظت باسم مدغاسن في صيغة معرّبة (مادغيس) وهو اسم

2 - لم تشر المصادر الرومانية التي وصلتنا إلى هذا المعلم، ولعلّ المصادر التي تسجّل تاريخ البلاد تكون قد تعرضت لتلف مقصود، وإذا كان تاريخ أوغوست وهو الوحيد قد أشار إليه إلا أنّه أورد رواية غير دقيقة، فقد ذكر هذا المرجع أن الإمبراطور الروماني بروبوس انتصر في معركة ضارية على زعيم أفريقي ثائر اسمه أراديون (Aradion) وقتله فأقام له جنودا معلما يكون نصباً تذكاريًا ومدفنا بعرض 200 قدم أي 59,20 مترا، أنظر: - Histoire Auguste, Probus, 9 - ومن الغريب أنّ هذه الأبعاد مطابقة لأبعاد ضريح مدغاسن الذي يبلغ 59 م، وجعل من اسم مدغاسن تحريفا للعبارة اللاتينية Tumulus aradionis أو Monumentum aradionis، هذه الفرضية في الواقع لا تصمد أمام الوقائع التاريخية، أنظر: A. C., le Mausolée du roi Aradion, In RSAC (Recueil de la Société Archéologique de Constantine), 1854-1855, pp. 180-181

3 - أشار إليه البكري وهو من أبرز الرحالة خلال الفترة الإسلامية، ففي حديثه عن الرحلة من القيروان إلى قلعة بني حماد ذكر أنه إلى الغرب من بغلي وقساس يوجد قبر مادغوس ووصف عمارته، وأهم ما أشار إليه هو وجود صور لأشخاص وحيوانات على واجهته وقد حاول الكثير منهم ولكن ما استطاعوا ذلك ... أنظر ترجمة الأب دوصلان للبكري: El-Bekri, Description de l'Afrique Septentrionale, Trad. Par De Slane, Paris Maisonneuve, 1965, p. 107.

السلف الأعلى -حسبه- لأحد فرعي الأمازيغ (البتر والبرانس)، وحسب هذه الرواية فإنّ مادغيس الأتر هو الجد الأعلى للبتر⁴، وهذا يعني حسب الرواية أنّ الضريح هو مدفن السلف الأول الذي يتسمّى المنحدرون منه باسمه على اعتبار أن اسم مدغاسن هو صيغة الجمع لمادغوس، وهذا هو استنتاج كاريت الذي يرى في مادغوس السلف الأول⁵ للشعب الذي ظل يعمر المنطقة الأوراسية والجنوب النوميدي عموما.



الشكل (1) موقع ضريح مدغاسن

ومنذ ابن خلدون والبكري علينا انتظار القرن التاسع عشر مع التوسع الاستعماري الذي كان من بين اهتماماته إرسال البعثات الأثرية بل وحتى الهواة من ضباط جيش الاحتلال الذين اهتموا بالجوانب التاريخية والأثرية، ليكون مدغاسن أحد المعالم التي كانت محل بحث هؤلاء رغم ما ألحقوه به من ضرر مادي ومعنوي.

خلال تتبعنا لكتابات الرواد الذين واكبوا بدايات الاحتلال الفرنسي للمنطقة،

4 - Ibn Khaldoun, Histoire des Berbères, trad. Par De Slane, T, I, p. 168, 181, 226

5 - ليس شرطاً أن يكون السلف المحتفظ باسمه هو الجد الأعلى لزناة التي هي بحجم شعب، لا شك أنّ ذلك الشعب أقدم بكثير من ضريح مدغاسن، بل المرجح أنّ مدغاسن شخصية ملكية مرموقة أقيم لها هذا المعلم فاحتفظت الأجيال باسمه والمعروف أنّ فكرة برانس وبتر ما هي إلا تصنيف للشعب الأمازيغي حسب اللباس، ثمّ تمّ تركيب جينولوجيات بناء على هذا التصنيف، نخدم كلّها أبعدا سياسيّة مشبوهة، أنظر أعلاه هامش 1.

لاحظنا بعض المحاولات التي تريد استنتاج شيء عن حقيقة الضريح من خلال دراسة فيلولوجية لاسمه، مع أنّ التفسير الذي قدمه كاريت ظل مقبولا من الجميع، ولكن بعض هذه المحاولات كانت سطحية⁶، مما جعل البعض يستدرك ليقول أنّ مادغوس ما هو إلا شخصية أسطورية وهو اسم احتفظ به الزناتيون حتى بعد استعراهم، وقد انتبه غابريال كامبس إلى وجود الاسم في صيغة التأنيث في منطقة زناتية أخرى وهي جهة تيارت حيث توجد قرية تحمل اسم مادغوسة، معتبرا الاسم صيغة مفرد مؤنث معربة لمدغاسن، خاصّة وأنّ منطقة تيارت هي منطقة مدافن أمازيغية متميّزة، وفي رأيه أنّ الزناتيين يحتفظون باسم سلفهم الأسطوري وهو اسم مرتبط بالمدافن والأضرحة الكبرى لأسلافهم، وأنّ الاسم بقي في صيغته الأمازيغية في المنطقة الأوراسية التي تحتفظ باللغة الأمازيغية في حين تحوّل الاسم إلى مادغوسة لدى زناتة الغرب المستعربين⁷.

زار هذا المعلم عدد من الرحالة ومن أبرزهم شو⁸ الذي حاول تقديم معلومات وصفية عنه، ولكن أخطأ عندما قال بأنّ المدغاسن أكبر من ضريح تيبازة (قبر الرومية) مما يدلّ على أنّه لم يعاين أحد الضريحين، كما كتب عنه بيسونيل ولكن لم يكن دقيقا في تحديد أبعاد المعلم⁹، وعندما بدأت البعثات الأثرية في الاهتمام به كانت هناك معلومات مؤكدة تقول أنّ الضريح يتكوّن من قسمين: سفلي وهو أسطواني الشكل وعلوي وهو مخروطي الشكل.

وعلى امتداد الفترة كان البحث في هذا المعلم شأنا عسكريا ولعل ذلك لأن المنطقة ظلت فترة طويلة تحت الحكم العسكري قبل إقرار الإدارة المدنية، وكان من الرّواد الكولونيل كاربوتشيا¹⁰ (Carbuccia) خلال 1849، ومن بعده التنقيب كولينو (Colineau) خلال السنة الموالية 1850، وقد اكتشف هذا الأخير أحد مداخل المعلم في الدرجة الثالثة من القسم المخروطي، وظنّ أنّه اكتشف سرداب الدفن ولكن تبين أنّ هذا المدخل ما هو إلا سلّم يؤدّي إلى رواق داخلي.

6 - مثل محاولة أبراهام كاهين الذي انطلق من اسم مادغاسن الحرف في اللغة الفرنسية إلى Madres ليقرا حرف الغين راء ومنه يقارب الاسم بالكلمة العربية مادر بعد حذف السين ظنا منه أنه زبالة لاتينية ليصل إلى استنتاج أنّ مادر تعني المستدير أي أن الضريح أخذ اسمه من شكله إلى آخر هذه التهويمات، أنظر: -Cahen (Ab.), Le Medracen, in RSAC, T, XVI, 1873-1874, pp. 1-17.

7- Camps (G.), Le Medracen, Mausolée royal de Numidie, in Comptes-rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, Année 1973, Volume 117, Numéro 3 (pp. 470 - 517), p. 498

8 - Shaw, Voyage ou observation relatives au plusieurs parties de la Barbarie et du Levant La Haye, 1734, p. 136.

9 - Peyssonnel (X.), Voyage dans les régences de Tunis et d'Alger, Paris 1838, p. 343.

10 - في تقرير كاربوتشيا وصف المظهر الخارجي للمعلم لأول مرة، وقد نشر هذا التقرير في المجلة الأفريقية من قبل بربروجر، أنظر: - Berbrugger, Compte rendu bibliographique du premier volume de l'annuaire de Constantine t, I, 1856, pp. 234-239.

خلال العام 1854 جاء دور المهندس المعماري بيكر الذي درس المعلم وصنّح المعلومات المتعلقة بأبعاده وانتقد الأعمال المنقذة بأمر من الكولونيل كاربوتشيا، وبطبعي أن تكون دراسة بيكر هي الأهمّ لأنه يجمع بين خبرة الأثري وتقنية المعماري، وهو ما جعله يستنتج وجود رواق يؤدّي إليه المدخل الذي اكتشفه كاربوتشيا، كما أنّه السبّاق في اكتشاف الأبواب المزيفة.

كان بيكر الوحيد خلال القرن 19 الذي عرّف بدقة عدد درجات القسم المخروطي وهي 23 درجة¹¹، ويأتي بعده الضابط فوي¹² الذي ذكر برواية الليقاتوس بروبوس، كما أشار إلى عوامل اختيار الموقع حيث النظر محدود جهة الشمال والجنوب عكس الجهة الغربية التي يمكن أن يرى منها من مسافة بعيدة، وكذا عدم وجود عاصمة ملكية أو حتى إقامة ملكية بجواره، ولذلك استنتج احتمال أن يكون موقع المعلم هو المكان الذي توفي فيه القائد أو الأمير الذي أقيم له هذا المعلم، واستنتج كذلك أنّ بساطة معماره وحجمه المعتبر يدلّ على أنّه أنجز من قبل عمّال من أفراد الجيش أقل مهارة ولكن أعدادهم كبيرة، وهي استنتاجات واردة، وقد ظلت دراسة فوي هذه مصدرا هاما لكل من جاء بعده، وخاصّة برينون¹³ وكرّر الجميع أنّ عدد درجات القسم المخروطي هو 24 دون الانتباه إلى أنّ فوي اعتبر الكورنيش هو الدرجة الأولى¹⁴.



الشكل (2) المدخل

2. الحفريات

جرت حفريات 1873 تحت مراقبة لجنة معيّنة من قبل الجمعية الأثرية لعمالة قسنطينة (21) أفريل إلى 18 جوان

11 - Becker (H), Essai sur le Medracen, in RSAC, 1854-1855, pp. 108-118 (p. 115).

12 - ألقى فوي محاضرته التي تضمنت نتائج أبحاثه أمام أعضاء الجمعية الأثرية لعمالة قسنطينة في ماي 1855 أي قبل أن ينشر بيكر وأبراهام كاهين دراستهما، أنظر:

- Foy, Notice archéologique sur le Medracen, RSAC, 1855-56, pp. 58-59

13 - لقي برينون مساعدات هامة مكنته من إتمام بحثه الأثري وهذا من قبل مصالح الهندسة - حيث أنّ أحد أبرز مهندسيها وهو بوشتي (Beauchetet) كان يعرف المعلم جيّدا وكان قد أنجز مجسما له سنة 1866 وقدمه للعرض في المعرض العالمي في السنة الموالية 1867، ولا نعرف إن كان الجسم الموجود بمتحف سبرتانا من إنجازهم - وكذا من مفرزة من فرقة زاوابة (Zouaves) ومساهمة مالية من الجمعية الأثرية بقسنطينة قدرها 500 فرنك بقيمة هذه العملة في تلك الفترة وهو مبلغ زهيد يقول برينون قياسا مع المبلغ الذي أنفق في حفريات ضريح تيبازة وهو 20000 فرنك على الأقل،

14 - ومع أنّ الدراسة التي أنجزها ذات أهمية إلا أنّه هو المسؤول عن هذا الخطأ فقد أنجز دراسة شاملة ضمّنها كل ما توصلت إليه الأبحاث الأثرية بالمعلم ولكن دون تدقيق، وقد اعتمد عليه من جاء بعده ومن بينهم أفرال دون مراجعة.

من نفس السنة)، ونعتبر هذه الحفريات عملاً علمياً حقيقياً لأن الأعمال السابقة ما هي إلا تحريات بسيطة، وقد تمكن مهندس الأشغال بوشتي بمن معه من العمل وما يمتلكه من عتاد من الوصول إلى السرداب الأوسط عبر رواق يتم الدخول إليه من خلال السلم الذي كان قد اكتشفه كولينو، كما قام بوشتي بحفريات في التملوس المجاورة للضريح، وقد استنتج بأن الأروقة الفجّة داخل الضريح من عمل أشخاص يبحثون عن الكنوز، خاصة وأن الضريح خالٍ من أي أثاث جنائزي مما يدل على أنه كان محل نهب في تاريخ قديم جداً، وقد أشار العديد من المهتمين منذ 1893 إلى تعرض الجهة التي تم الدخول منها إلى الانهدام ولم يتجرأ أحد بعد ذلك بالدخول خوفاً من انهيار الضريح الذي يتطلب إقامة دعلمات من الداخل تحفظ القسم المخروطي من الوقوع¹⁵، ويمكن القول أنه منذ حفريات بوشتي لم يغامر أحد بالبحث فيه، ما عدا الدراسة التكميلية التي قام بها موليني - فيول الذي اكتفى بدراسة وصفية للنقوش والرسومات التي تظهر في بعض الأقسام الخارجية، ويبقى أحسن من درس ضريح المدغاسن هم بايان (Payen)، موجال (Mougel)، مليكس (Melix)، مرسيني (Mercier)، تيسو (Tissot)، اقزال (Gsell) وفروبنوس (Frobenius)، ولعل آخر دراسة عنه هي دراسة بامار¹⁶.



الشكل (3) الوضع الحالي للضريح وهو كما نرى وضع كارثي

يرى البعض أن ما نشر من دراسات وصفية للمظهر الخارجي للضريح شامل وكاف، ومع ذلك نرى أن التدقيق ضروري، فالمعلم ذو قاعدة أسطوانية يرتكز

15 - كما أشار إليه موليني فيول حيث لاحظ ركيزتين من خشب العرعار التي تسند السقف مكسرة، أنظر: Molinier-Violle, Le Medracen, RSAC, 1893, pp. 45-77

16 - Pamart (H), étude sur le Medracen, (Tombeau de Syphax) et le Kbeur Roumia (Tombeau de la chrétienne), in Rev. Afric. T, 61, 1920, pp. 279-293.

عليها قسم علوي مدرّج مخروطي الشكل، وهو الشكل الدائري المستمد من قبور البازينا، ولكن بعض حجارته تعرّض لأعمال التخريب بحثاً عن القطع المعدنية التي تشدّ كتل الحجارة الصقيلة بعضها ببعض (ش4)، وهو ما أدّى إلى انفراط عقد تلك الكتل الكبيرة وسقوطها، وخاصة حجارة الكورنيش ذات الشكل الهندسي البديع، مما حال دون أخذ أبعادها بالدقة المطلوبة، ولذلك وجدنا اختلافاً في تقدير أبعادها في الدراسات المذكورة أعلاه.



الشكل (4) الأضرار التي تسببت في هذا الانهيار

يرتفع الضريح 18ر50 م، ويبلغ محيطه 184ر80 م بما في ذلك قاعدة البناء (Soubassement) التي تتركز عليها جذوع الأعمدة (Fûts) الناتئة، وعدد درجات القسم المخروطي 23 سمك كل واحدة 0ر58 م في المتوسط، ومن نقطة في الدرجة الثالثة نجد المدخل المؤدّي إلى السلم الذي يوصل إلى الرواق ومنه إلى الغرفة الجنائزية.

1.2. المصطبة الأمامية

تعرّف على أساساتها كل من كولينو وفوي، وهي شبه دكة بسيطة محاذية للضريح جهة الشرق طولها 25 متراً وعرضها 14 متراً، وقد اعتقد فوي أنها كانت مبنى معداً لحارس الضريح لأنها تقع بجوار مدخل السلم الذي يوصل إلى الرواق داخل الضريح، ولكن لا يعرف في الواقع إن كانت مبنى أم مجرد مكان مسور أقيم لأغراض أخرى، ولعلها المكان المعد لممارسة الطقوس خاصة وأن أغلب المعالم



وأَيّ المتاحف تحتفظ بها.

يستمدّ هذا الضريح شكله وملمحه من شكل البازينا ذات القاعدة الأسطوانية، وهو معلم معماري نوميدي أصيل مستوحى من معتقد باليوأمازيغي مرتبط بعادات وطقوس الدفن التي مورست طيلة فجر التاريخ على الخصوص، في عموم الشمال الأفريقي²⁰، وفي العهد النوميدي مع توفر عوامل الرقي الحضاري تمّ تنفيذ وتجسيد تلك المعتقدات في معالم معمارية من طراز رفيع يعدّ ضريح المدغاسن نموذجاً لها، ورغم هذا التفرد إلا أنّ مؤرّخي فترة الاحتلال جريا على عادتهم في نفي وجود حضارة نوميديّة أفريقية بحثوا له عن «نسب» يربطه بالإغريق وبقرطاج، وجاء من سار على نهجهم إمّا لقلة انتباه أو عدم اكتراث أو حتّى بنية مقصودة، لتأكيد تلك الطروحات الاستعمارية التي تنفي عنه الأصالة والتفرد وتجّره من هويته الحقيقية²¹.

تعتبر مدافن البازينا النموذج البدائي لهذا الشكل من الأضرحة الكبيرة، والملاحظ أن العديد منها ذو قاعدة أسطوانية تعلوها كومة من حجارة في شكل مخروط وهي منتشرة في عموم الشمال الأفريقي في أماكن بعيدة عن المدغاسن مثل بازينات العين الصفراء، وجبال القصور، ووادي تامدة وحتى في عين احمارة بناحية اولاد جلال، وفي جبل مستيري قرب تبسة، وهذه البازينات كلها مزوّدة بمصاطب تقام عليها الطقوس²²، ونستنتج من مقارنة بسيطة أن المدغاسن لا يختلف عن البازينات لا من حيث شكله العام ولا من حيث المصطبة المقامة بجانبه جهة الشرق أين كانت تقام الطقوس ولا حتى من حيث مداخله، وقد عبّر البعض عنه بأنّه بازينة تلبس حلة معمارية جميلة²³.



الشكل (6) بازينا - من العين الصفراء -
بقاعدة أسطوانية + مصطبة أمامية

الجنائزية الأفريقية لها لواحق مماثلة لها¹⁷. ومّا يؤيّد هذا الرأي ما ورد في تقرير كاربوتشيا عن عثوره على شواهد تدل على الوظيفة الطقوسية لهذا المبنى الأمامي وهذه الشواهد هي أرضية المكان المصبوغة بطلاء أحمر "كان لا يزال يحتفظ بلمعانه" كما أشار إلى عثوره على قطعة من ذراع تمثال في نفس المكان، وهذا المبنى الذي لم يبق له أثر اليوم - بكل أسف - ذو أهميّة كبرى، وهو الذي كان سيحبب - لو تم الاحتفاظ بآثاره - على تساؤلات كثيرة لا نجد لها اليوم جواباً¹⁸.

كان ترك الأمر للفضوليين والهواة من عسكر الاحتلال الفرنسي هو

السبب في إتلاف ما بقي من آثار المدغاسن، ومن بين ما تمّ اكتشافه في محيط الضريح مقبرة حديثة نسبياً، وقبران مغطيان ببلاطات، وهيكل عظمي يعتقّد أنّ صاحبه دُفن في وضع جلوس، مسرحية احتمالاً من الفترة الرومانية، قطع نقدية صغيرة من البرونز إحداها للملك يوبا، رأس حربة وفأس صغيرة¹⁹، وهذه المعثورات كلها - في نظر الباحثين - تعود إلى فترات لاحقة مع أنّ الموضوع كان يتطلب التأمّني وإعادة النظر في تصنيفها، بل إننا لا نعرف مصير هذه المعثورات

17 - في تقرير كاربوتشيا هو مصطبة مبلّطة مستطيلة تلامس ضريح المدغاسن بأحد أضلاعها، وهذه المصطبة ما يماثلها في ضريح تيبازة وأضرحة تبارت (الجزائر)، أنظر:

Berbrugger (A), Bulletin bibliographique, in Rev. Afric., T, I, 1856, pp. 232-240 (p.235).

18 - كان موليني فيول هو الوحيد الذي طرح فكرة وجود مصطبة مماثلة في الجهة الغربية للضريح، ولكن لا يوجد اليوم أي أثر يمكن أن يدعم هذه الفكرة، كما أننا لا نجد في باقي الأضرحة الباليوأمازيغية (Paléo amazighes) ما يثبت هذه الفكرة أو الفرضية، أمّا تخصيص فضاءات أو أماكن ملحقة بالمداخن الأفريقية على أنواعها فهو تقليد عام في كلّ المدافن الأفريقية وهي كلها أماكن مستقبلية جهة الشرق بغرض التعبد للشمس، أنظر:

Camps (G.), Un Mausolée marocain: la grande bazina de Souk el-Gour, In Bulletin d'archéologie marocaine, T, IV, 1980, pp. 47-92

19 - عثر أيضاً على نص جنائزي من الفترة الرومانية بجوار الضريح لشخص اسمه كوينتوس نونيوس (Quintus Nonius) لا أثر له اليوم مع أنّ موليني (1893) واقرال (1894) عايناه وقرأ مضمونه، ولعل مثل هذه الأضرحة الكبيرة تجذب الناس للدفن فيها على مرّ العصور، وإلى عهد قريب كان الدفن لا يزال يتمّ في مقبرة مجاورة للضريح من قبل سكان المنطقة، أنظر:

Monilier-Violle, I, I, p. 68; -Gsell et Graillot, Exploration archéologique dans le département de Constantine: Ruines romanes au nord des monts de Batna, in Mélanges d'archéologie et d'histoire, Ecole française de Rome, T, XIV, 1894, pp. 71-72.

20 - يمكن التوسع بالرجوع إلى:

Camps (G.), Aux origines de la Berbérie: Monuments et rites funéraires protohistoriques, Paris A.M.G. 1961, pp. 166-168.

21 - يلجأ هؤلاء إلى استعمال الأغلوطة في دسّ أحكامهم فعوض الاعتماد على النظرة الكلّية للمعلم لإثبات هويته الحقيقية، يقوم هؤلاء باعتماد النظرة الجزئية وينسبون كل جزء أو قطعة معمارية إلى عمارة معيّنة كأن يقولوا الطنف من العمارة الفلانية والنتيجان من العمارة العلانية، وبعد ذلك يتمّ تركيب هوية حضارية للمعلم تجعله إبداعاً أجنبياً، مع أنّ الإبداع يقوم على التركيب، وهذا ما حدث لكلّ المعالم الحضارية الأفريقية النوميديّة، على طريقة من يكتب بأسلوب المملكة النوميديّة والحضارة البونية وهو التعبير الذي لا يستقيم إلا في أذهان محترفي تزييف التاريخ.

22 - بعض البازينات مدرّجة مثل بازينات جبل مستيري، وينتمي ضريح القور في المغرب إلى هذا النموذج، أنظر: Le Dû (Docteur), Promenade archéologique dans les environs de Tébessa, in RSAC, T, XVIII, 1876, pp. 382-427.

23 - عبارة كامبس »

le Medracen Au lieu d'être circonscrit par un mur de pierres sèches le Medracen possède un parement extérieur architectural « المدغاسن ... عوض أن يكون محاطاً بجدار من الحجر الخشن ... تمّ تزيينه بمظهر خارجي معماري. وقال في سياق آخر أن البازينات ما هي إلا نموذج مصغّر بدائي للمدغاسن «est une maquette barbare du Medracen» أنظر:

Camps (G.), op. cit. p. 483 et



2.2 واجهة الضريح

يبدو المظهر الخارجي للضريح عملا معماريا فنيا بالغ الإتقان مكن من الصمود في وجه الزمن قرونا طويلة، ويبدو الاتساق والتطابق بين الكتل الحجرية الصقيلة غاية في الدقة.

تحتوي قاعدة البناء على عدد من الجدران الأساسية (Assises) التي تعوّض فرق الارتفاع في الأرضية التي يرتكز عليها المبنى، ويضمّ القسم الأسطواني ثمانية من تلك الجدران، ويظهر الجدار الأساسي الداخلي بنتوء مقداره 0.53 م ، في مستوى ما بين الأعمدة، وهو يشكل دعامة ارتكاز للأعمدة، وبسبب هبوط المبنى (Affaissement) فإنّ تلك الجدران الأساسية ومركزات الأعمدة (Soubassements) لا تظهر²⁴.

3.2. الأعمدة

عددها ستون، تبدو بارزة وهي ذات جذوع دائرية صقيلة، ويتكون كل عمود من تاج وجذع وقاعدة، وأعمدة المدغاسن من الطراز الدوري. ويبلغ الارتفاع الكلي للعمود بما في ذلك التاج 2.65 م، ويتكوّن كل تاج من حلية (échine) بعلو 20 سنتم يفصلها عن الجذع أربع حلقات (Annelets) زخرفية نصف دائرية، وفوق الحلية عصّابة (Tailloir) بارتفاع ما بين 0.18 و 0.19 سنتم، وتذكرنا أعمدة المدغاسن عموما بطراز الأعمدة المصرية²⁵.

ترتكز العارضات (Architraves) على رفاف (Abaques) ذات نتوء ما بين الأعمدة مقداره بين 21 سنتم و 22 سنتم وتنتهي بزواوية مكسورة، وفوق العارضة قوالب طوقية (Tore) أو بالأحرى قوالب (Réglet) مسطح متعدّد الأضلاع ذو نتوء قدره 15 سنتم، وفوق القوالب المسطح آخر قاعدة مكوّنة من كورنيش على شكل ربعية (Cavet) ويرى البعض أنّ البروز الكبير بقدر ما هو متناسق وجميل إلا أنّه خلّ بالتوازن الذي يضمن قوّة الارتكاز ولذلك لم تصمد حجارته مع الزمن وسقط أغلبها لتعرضها لضغط نحو الخارج²⁶، ومع الإهمال الذي ظلّ ملازما له طيلة عقود تدهورت حالته أكثر في السنين الأخيرة وهو آيل إلى السقوط إن لم يتمّ ترميمه وصيانته.

24 - Pamart (Henry), op cit, p. 289.

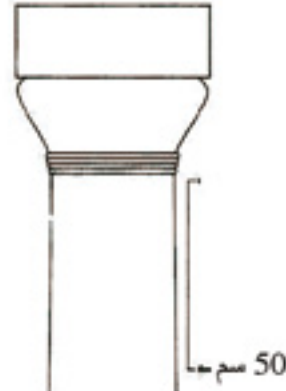
25 - كان تصنيف أعمدة المدغاسن محلّ نقاش بين الأثريين وبعضهم نسبها للطراز التوسكاني وبعضهم لم يكن دقيقا في وصف أقسامه، أنظر:

- Gautier (E.F.), les premiers résultats de la mission Frobenius, in Rev. Afric., t. LXII, 1921, pp. 47-61.

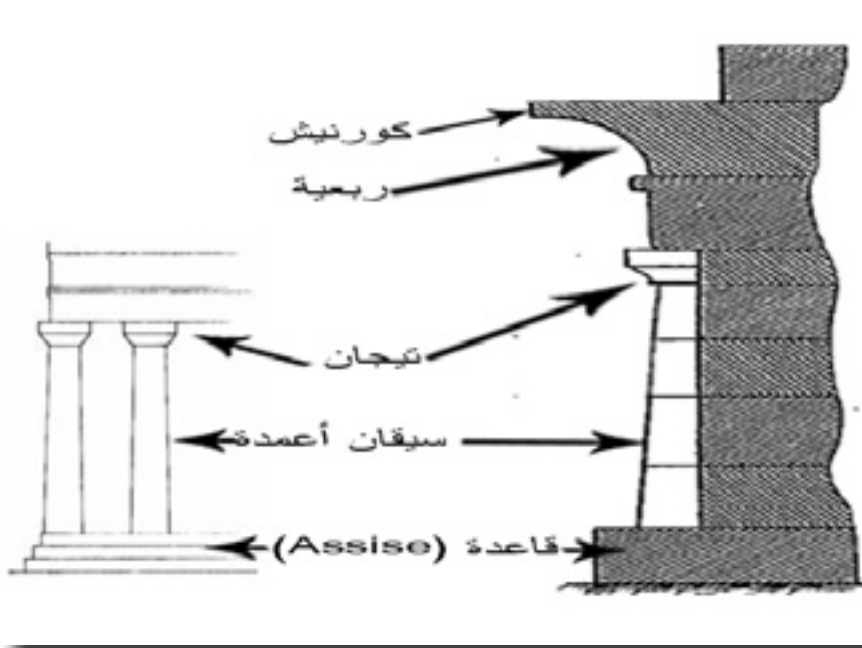
26 - درس لوكلاوك الموضوع بدقّة مركّزا على الأبعاد، أنظر: - Le Clerc (H.), Note sur le Merdracen, in RSAC, 1864, p. 133, pl. XXXIII.



الشكل (8) الأعمدة في وضعها الحالي



الشكل (7) تاج من الطراز الدوري

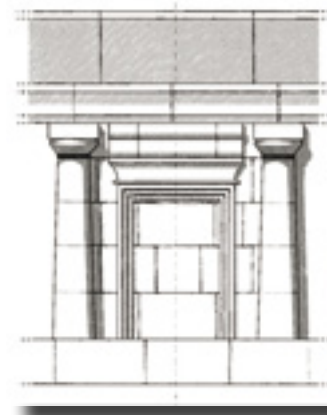


الشكل (9) أعمدة الضريح

4.3. الأبواب المزيفة

كان بيكر²⁷ (1854) أول من انتبه إلى وجود هذه الأبواب الثلاثة، فقد لاحظ ذلك في نتوء حجر صقيل (Moulure)، وجاء بعده موليني الذي أشار بوضوح

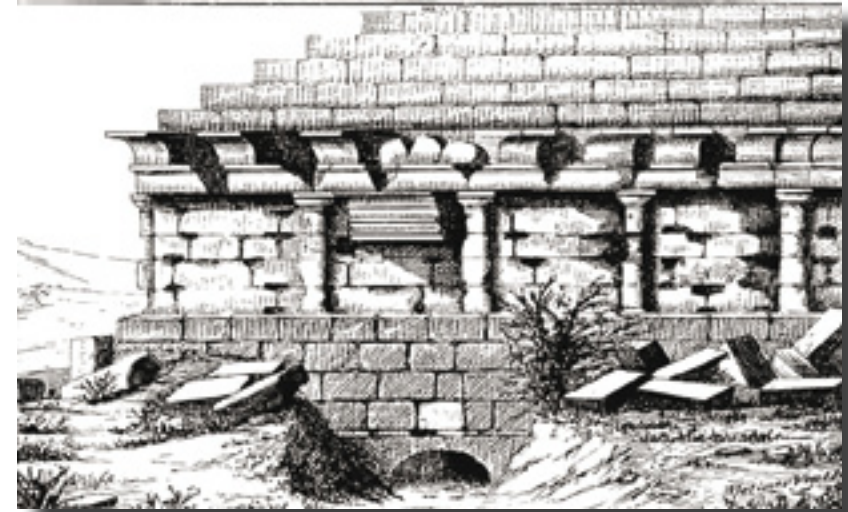
27 - يكر مهندس معماري قام بمعاينة الضريح وكتب تقريرا أثريا عنه ضمّنه اكتشافاته وآراءه، توفي في باتنة العام 1855، أنظر: - Becker (F.), op. cit., p. 118 وكنا نأمل القيام بالنقاط صور حديثة وعن قرب للتفاصيل المعمارية التي ذكرها ولكن عند وصولنا مُعْتَمِنًا من الدخول من طرف الحارس الذي يقول أنّه يطبّق تعليمات إدارية، واكتفينا بالنقاط بعض الصور عن بعد.



الشكل (10) رسم يبيّن كيف

كانت الأبواب المزينة

إلى باب مزيف جهة الشمال الشرقي ما بين العمودين 30 و 31 ، وآخر جهة الجنوب الشرقي ما بين العمودين 50 و 51، ولا أحد سواهما انتبه إلى هذه الأبواب التي في الواقع عبارة عن نحت يوحي بأنه باب لا نعرف إن كان الغرض منه جمالي أو تعبدي لإقامة بعض الشعائر رعلى غرار ما كان يتم في كوى (Niches) القبور الميغاليتية أو البازينا، أم أنه كان بهدف تضليل الفضوليين أو من كل من يريد الدخول لإلحاق ضرر بالضريح.



الشكل (11) القسم ما بين العمودين 9 و 11 حيث يوجد أحد الأبواب المزيفة

5.2. القسم العلوي (المخروطي)

يتكوّن هذا القسم من 23 درجة، ارتفاع كلّ واحدة 58 سنتم، وعرضها ما بين 97 و 98 م، وهي أبعاد أجمع عليها كل الباحثين الذين زاروا الضريح أو أجروا فيه أبحاثاً أثرية، وفي الدرجة الثالثة نجد المدخل الموصل إلى الرواق، وله حجر صقيل²⁸ أعدّ خصيصاً لعلق فوهة المدخل بحيث لا يمكن الانتباه إلى إنه «بوابة» حقيقية، ويبدو أن الساعين لنهب ما في الضريح كانوا قد اكتشفوه ولما لم يتمكنوا من زحزحته كسروا جزءاً منه وأحدثوا ثغرة مكنتهم من التسلل إلى الرواق. وكان بوشتي خلال

28 - حسب الرائد فوي (أنظر Foy, op. cit. p. 62) ارتفاع هذا الحجر 1,36 م وعرضه 1,20 م وسمكه 0,48 م وقدر أن وزنه 1500 كيلوغرام.

أبحاثه قد أمر عماله بأن يلقوا بذلك الحجر إلى الأسفل، حيث ظل لفترة طويلة ولكن لا أثر له اليوم، وينبغي البحث عنه في الحجارة المكومة بجوار الضريح إذا لم يتعرض للنهب أو الكسر.

يتميّز الساكف²⁹ (Linteau) بوجود ثلم أو حزّ (Rainure) أفقي طوله 80 سنتم، وعرضه 15 سنتم، ليكون مزلق التواء المقابل له في حجر الغلق، ويكفي رصف كتل الدرجة الرابعة لكي يختفي أي أثر لوجود بوابة في ذلك المكان لولا أن طول الساكف 1,72 م وطول الحجر الذي يعلوه 2,70 م يمكن أن يثير الانتباه لأن طول حجر البوابة أقل، ويمكن ملاحظة ذلك من خلال النظرة إلى تتابع كتل الحجر الصقيل في الدرجات.

6.2. الرواق

بعد الدخول من هذه البوابة نجد رواقاً صغيراً عرضه 60 سنتم، وطوله 1,20 م، وقد اعتبره كولينو قبواً أو سرداباً دفن لأنه وجد به عظاماً بشرية، لكن استنتج في ما بعد أن لا علاقة لصاحبها بالضريح ويمكن أن تكون عظام أحد الساعين للنهب الذي يكون قد مات جرّاء سقوط حجر عليه.



(الشكل 11) الرواق

بعد هذا الرواق الصغير نجد سلماً به 11 درجة، عرض كل واحدة 1,20 م وبعد انحدار صغير نجد سرداب الدفن الرئيسي، وحسب برينون الذي يعتبر أهم من كتب وصفا مفصلاً للمدغاسن فإن واجهة جدار الرواق مزينة بطلاء خفيف أما الأرضية فهي مفروشة بحجارة صقيلة فوقها طبقة مدهونة بطلاء احمر مثل درجات السلم، ونظراً لتعرض الضريح

لأعمال التخريب فقد تضررت سقوف الرواق، مما اضطرّ المنقبون إلى دعمها بركائز (Etançons) خشبية متفرعة في أعلاها على شكل مذراة³⁰، بعضها من وضع بوشتي خلال أعماله التنقيبية، لتجنّب سقوط الحجارة خلال التوغل باتجاه غرفة الدفن، ويتكوّن السقف من عارضات (Poutres) من خشب العرعر حسب موليني فيول³¹، ولكن الأصلية منها من خشب الأرز وتعود إلى بناء الضريح كما يبدو من شكلها، وقد عدّ منها غابريال كامبس سبعة عشر عارضة، منها اثنتان في المدخل تليها أربعة وأخيراً ستة بجوار غرفة الدفن قطر كل منها حوالي 30 سنتم،

29 - أعلى الباب الذي يقابل العتبة.

30 - Brunon, op. cit. p. 326.

31 - Milinier Violle, op. cit. p. 58

8.2. الأثاث الجنائزي

لم يعثر الأثريون على شيء معتبر في هذا المجال، مع أنّ ضريحاً بهذه الفخامة لا يمكن أن يكون خالياً من الأشياء الثمينة، وقد قام برينون مجرد كل المعثورات وهي كلها أدوات غاية في البساطة، مما يدل على أنّ الضريح كان محل نهب وأنّ ما به من أثاث ثمين قد نهب في ظروف غامضة، على امتداد القرون في منطقة معزولة بعيدة عن أي رعاية رسمية، وأكثر من ذلك كان محل أساطير شعبية تتحدث عن الكنوز التي يحتويها مما يغري المغامرين من كل نوع ومن كل جنس، ولذلك لم يبق فيه شيء ذو أهمية يمكن أخذه أو نقله وهي الحالة التي وجدها عليها الأثريون الرواد منذ القرن XIX³⁵.



الشكل (12) مقطع طولي في ضريح مدغاسن يبين مختلف مكوناته

9.2. النقوش والكتابات

أشار العديد من الأثريين إلى وجود كتابات ليبية، بونية، لاتينية وحتى عربية، وصور لحيوانات على جدران الضريح، وهي كتابات لم يبق منها شيء الآن، ولو كانت تلك الكتابات والصور أصيلة فعلاً لكانت جواباً قاطعاً على الأسئلة والطروحات الكثيرة بخصوص هوية وتاريخ هذا المعلم الهام، وكان موليني فيول أبرز من اهتم بهذا الجانب، بل فصل فيه وسجل الكتابات والصور التي نقشت على الجدران والأعمدة، لكن بعد تبّعنا لصور تلك الكتابات والنقوش في مقاله، تبين لنا أنها انطباعية وفضولية لزوّار أو على الأصحّ لعابري سبيل، لأنها فجّة وفي غير أماكنها فلقد درج المعمارون على تسجيل نصوصهم التدشينية أو الإهدائية على ألواح صقيلة وداخل إطار، ولذلك نستبعد أن تكون تلك الصور والكتابات أصلية وذات علاقة بإقامة هذا الصرح الفخم الذي يستوجب كتابات وصوراً في مستوى رقيه وفخامته، غير أنّنا نرى أنّ هذا الضريح الفخم لا يمكن

وقد لاحظ أنّه يمكن تمييزها من بين الركائز الأخرى غير الأصلية، هذه الأخيرة من خشب البلوط الأخضر، وفي الأخير استنتج أنّه يمكن استعادة الصورة التي كان عليها الرواق وهي أنّ أرضيته كانت مدهونة بطلاء المغرة الأحمر، أمّا الجدران الداخلية فهي مدهونة بالحصّص إلى ارتفاع ملائم لعرضات السقف المصطفة بجانب بعضها البعض على امتداد 17 متراً، وهي من خشب الأرز، ويمكن تقدير عددها بحوالي 45 عارضة³².

شجرة الأرز النوميدي متوفرة في غابات المنطقة، ولا تزال إلى اليوم في جبال شلية وشلعلع غير بعيد عن المدغاسن، وخشب الأرز من أهمّ الأخشاب التي تقاوم مؤثرات الزمن لفترات طويلة خاصة وأنها داخل الضريح محمية من تأثير الرياح، وتأتي أهميتها خاصة من حيث أنّ تقدير عمرها يمكن من تأريخ الفترة التي شيّد فيها هذا المعلم، وكان غابريال كامبس قد عاينها خلال سنة 1970، وأخذ منها عينات لدراستها مخبرياً، وظهرت النتيجة وهي أنّ عمر العينة يتراوح ما بين 2175 ± 155 و 2270 ± 110 سنة³³، وهي النتيجة التي استند عليها المؤرخون وعلماء الآثار في ترجيح تاريخ تشييد ضريح مدغاسن بالقرن الثالث ق.م.

7.2. الغرفة الجنائزية

في آخر الرواق نصل إلى غرفة الدفن وهي مبنية كلّها بحجارة صقيلة، ولها مدخل علوّه 1.70 م وعرضه 90 سنتيم، له باب من خشب الأرز مصبوغ بدهن أحمر، ويحتمل أن تكون سقوفها من بلاطات على غرار سقوف السلم والرواق الصغير (Vestibule) المجاور له، وقد لاحظ الأثريون صغر حجم هذه الغرفة الجنائزية قياساً مع حجم الضريح، حيث لا تتجاوز 3.30 م في الطول، و 1.45 م في العرض عند المدخل و 1.59 م. في نهايتها، وفي أسفل الجدران دكة صغيرة بعرض 20 سنتيم ولا يزيد علوها عن 30 سنتيم، أمّا آثار الحرق الملحوظة فهي بفعل التخريب الذي³⁴ يكون قد تسبب فيه الباحثون عن الكنوز، لأنّ حرق البخور من بين الأعمال السحرية التي يعتقدون أنّها تكشف عن مكان وجود الكنوز، ولا علاقة لآثار الحرق هذه كما هو واضح بطقس تحريق جثث الموتى الذي يريد البعض إقحامه في الموضوع³⁴.

32 - Camps (G.), Le Medracen, Mausolée royal de Numidie, in Comptes-rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, Année 1973, Volume 117, Numéro 3 (pp. 470 - 517), p. 498

33 - أخذت عينتان من عارضتين مختلفتين من خشب الأرز، ودرست في مختبر جيف سير إيفات (Gif sur Yvette) وأعطت النتيجة: 110 ± 110 ans قبل الميلاد، وأعطت مختبر الجزائر النتيجة: 155 ± 155 ans قبل الميلاد. 21 ± 155 ± 220 أي 155 ± 220 قبل الميلاد ومع أن الفارق بين النتيجة يقارب القرن إلا أنّه يمكن اعتبار الفترة واحدة لأنّ الأرقام تقريبية، أنظر: ibid. p. 499 et 510

34 - لا يمكن أن تتسع لجوار الدفن، ويرى كامبس أنّها أعدت احتمالاً لتكون مركزاً لألواح خشبية توضع فوقها الرفات لحمايتها من رطوبة التربة، ولكن لا نرى أهمية لتأويلاته المتعلقة بطقس تحريق جثث الموتى الذي يريد إقحامه في الموضوع، وهو ما يثير الاستغراب، فهذا المؤرخ رغم تضلّعه في تاريخ البلاد إلا أنّه ولوع دائماً بالبحث عن أصول أجنبية لكل شيء ولا يترك للأفريقيين إلا بعض الأشياء البسيطة التي تدلّ على محدودية التفكير، أنظر: Camps (G.), op. cit. p. 502

35 - عن هذه المعثورات يمكن الرجوع إلى دراسة برينون الذي أرفق صوراً لها بعد أن قام بترقيمها وجردها، أنظر:

- Colonel Brunon, Mémoire sur les fouilles exécutées au Medras-en, Mausolée des rois de Numidie, in RSAC, t. XVI, 1873-74, pp. 303-350



(ش 13 الكتابة الليبية
على العمود 10)

أن يكون خاليا من كتابات وصور مخلّدة له ولصاحبه في فترة كانت فيها الكتابة الليبية واسعة الانتشار، ولكن تلك الكتابات الأصلية تكون قد اندثرت بفعل أعمال تخريبية³⁶.

خاتمة

إذا كان عدد هام من الباحثين هواة وأكاديميين قد اجتهدوا خلال الفترة الاستعمارية في دراسة الجانب الأثري لهذا المعلم، ونشروا أبحاثهم التي تمثل اليوم مرجعا لا يمكن الاستغناء عنه لكل دارس أو مهتم، فإنّ جانبا آخر لا يزال ينتظر العناية من الباحثين من

جيل الاستقلال وهو المتعلق بالهوية الحضارية المغيبيّة في هذه الدراسات الحكومية بالظروف التي أنجزت فيها وبانتماءات أصحابها، ومن الطبيعي أن تكون كذلك، لكن ما هو غير طبيعي هو الوقوف اليوم عند تأويلات واجتهادات أولئك الرواد من ضباط الاحتلال على الخصوص وقد كتبوا وبحثوا ونقبوا - كما لا يخفى على الجميع - بروح الفاتح المنتصر، دون أن نقبل صفحتهم لنكتب تاريخنا الحضاري الذي يحفظ مجد الأمة ووجودها.

في هذا السياق وحيث أنّ الشكل الخارجي لمعلم المدغاسن لا نظير له في الضفة الأخرى عمد مؤرّخو الاستعمار إلى "تفكيك" المعلم إلى العناصر المكوّنة له، ليقول بعضهم مثلاً أنّ هذا التاج دوري وذاك العمود توسكاني وفي تحديد هويته المعمارية قال البعض أنّه ليبي - بوني على اعتبار أنّ الهوية البونية غير مقلقة كثيرا لأنهم يعتبرون القرطاجيين مجرد مقلدين ولا توجد في نظرهم هوية معمارية قرطاجية أصيلة، أي أنّه يسهل عليهم عند القول أنّ المعلم الفلاني قرطاجي أن يقولوا بعدها أنّه تقليد لنموذج معماري إغريقي انتقل إلى أفريقيا عبر صقلية، ومع هذا كله جاء من لم يستسغ عبارة ليبي-بوني فقال أنّه إغريقي-بوني ... الخ.

هذا كله لكي لا يقال بأنّ المعلم نوميدي، فهؤلاء ضدّ أن تكون للبلاد هوية حضارية

36 - يمكن الرجوع إلى موليني فيول لملاحظة هذه الصور، (Moliner-Viole, op. cit, pp. 60-77) وحتى بخصوص الكتابة الليبية المنقوشة على يسار أعلى العمود رقم 10 بجوار الباب المزينة، نرى أن مكانها ليس العمود كما هو واضح في الصورة التي أرفقها موليني بدراسته، لكن حتى ولو اعتبرنا كل تلك الكتابات فضولية فإنّ الكتابة الليبية ذات أهمية لأنها تعبر عن رواجها واستمرارها إلى فترات لاحقة.

مستملّة من رموز فنية ثقافية نوميديّة، لأنّهم يكرّسون فكرة أنّ الحضارة في هذه البلاد عمل طارئ ومن صنع الأجانب عملا بمقولة "في أفريقيا الشمالية بحث دائما عن يد أجنبية خلاقة وراء أيّ إبداع في أو حضاري" أي تكريس نظرية قصور الأفريقي، ومع أنّ غابريال كامبس أكد أنّ ضريح المدغاسن هو الشكل الأرقى معماريا للمدافن الدائرية الباليو أمازيغية (بازينا) إلا أنّه هو الآخر فكك المعلم وقسّمه إلى جزء بدائي يقرّ بأنّه بربري على حدّ تعبيره، وجزء فيه إبداع (أعمدة، تيجان، كورنيش) بحث له عن أصول من خارج المملكة الماسيلية، وقال بالحرف أنّه عبارة عن بازينا باليو-بربرية برداء معماري فيني بوني.

من الواضح أنّ المعمار يأخذ هويته من شكله العام، أمّا التفاصيل والعناصر المعمارية فيمكن أن تكون مقتبسة، وفي العمارة بالذات اقتبس الإغريق عن المصريين واقتبس الرومان عن الإغريق، ونحن لم نجد من فكك معلما إغريقيا إلى تفاصيله وعناصره المكوّنة له ليقول بأنّ القطعة الفلانية مصرية والأخرى آشورية كما فعل منظرو الاستعمار ومستكتبوه في هويتنا ورموزنا الحضارية لأنّ تركيب نماذج أصيلة هو عين الإبداع، والمدغاسن هو تركيب معماري نوميدي أصيل، وقد لاحظنا أن استمرار العائلة الملكية النوميديّة في شرشال حتى وهي تحت النفوذ الروماني لم تنس هويتها الحضارية فقد شيّد يوبا الثاني ذلك الضريح الذي يعتبر شكلا مولدا من ضريح المدغاسن، وكان في الإمكان أن يشيّد وفق النموذج الإغريقي وهو المتشعب بالحضارة الهلينستية، ولكن الوفاء للنموذج المعماري النوميدي حال دون ذلك لأنّ الضريح يجسّد معتقدات دينية نوميديّة أصيلة، وكما هو معروف فإنّ الدين عند جميع الشعوب وفي كل العصور هو الأكثر تأثيرا في حياة الأفراد والجماعات.

من حقّنا اليوم تصحيح الأخطاء المقصودة قولاً وعملاً، وأنّ نشبّت عبارة أنّ ضريح المدغاسن هو معلّم نوميدي في البحوث والدراسات وحتى اللافتات والمنشورات الموجهة للسياسة ترسيخا لهويته الحضارية الحقيقية، ولكن المطلب العاجل هو الإسراع في استقدام مرّمين من ذوي الخبرة والكفاءة العالية لإنقاذه من الانهيار، ثم إقامة متحف صغير ملحق به مع حراسة دائمة.



المراجع

1. Becker, H. (1854-1855), Essai sur le Medr'asen, in RSAC.
2. Berbrugger, A. (1856), Bulletin bibliographique, in Rev. Afric., T, I, pp. 232-240.
3. Cahen, Ab. (1873-1874), le Medracen, in RSAC, T, XVI.
4. Camps, G. (1980), Un Mausolée marocain : la grande bazina de Souk el-Gour, In Bulletin d'archéologie marocaine, T, IV.
5. Camps, G. (1961), Aux origines de la Berbérie: Monuments et rites funéraires protohistoriques, Paris.
6. Camps, G. (1973), Le Medracen, Mausolée royal de Numidie, in Comptes-rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, Volume 117, Numéro 3.
7. Cherbonneau, A. (1854-1855), le Mausolée du roi Aradion, In RSAC (Recueil de la Société Archéologique de Constantine).
8. Colonel Brunon, (1873-74), Mémoire sur les fouilles exécutées au Medras'en, Mausolée des rois de Numidie, in RSAC, t, XVI.
9. El-Bekri, (1965), Description de l'Afrique Septentrionale, Trad. Par De Slane, Paris Maisonneuve.
10. Gautier E. F. (1921), les premiers résultats de la mission Frobenius, in Rev. Afric., t, LXII.
11. Gsell et Graillot (1894), Exploration archéologique dans le département de Constantine: Ruines romanes au nord des monts de Batna, in Mélanges d'archéologie et d'histoire, Ecole française de Rome, T, XIV.
12. Ibn Khaldoun, (1852), Histoire des Berbères, trad. par De Slane, T, I, Impr. du Gouvernement.
13. Le Clerc, H. (1864), Note sur le Merdracen, in RSAC.
14. Le Dû Docteur, Promenade archéologique dans les environs de Tébessa, in RSAC, T, XVIII.
15. Molinier-Violle, (1893), Le Medracen, RSAC.
16. Pamart, H. (1920), Etude sur le Medracen, (Tombeau de Syphax) et le Kbeur Roumia (Tombeau de la chrétienne), in Rev. Afric. T, 61.
17. Peyssonnel, X. (1838), Voyage dans les régences de Tunis et d'Alger, Paris.
18. Shaw, Thomas (1734), Voyage ou observation relatives au plusieurs parties de la Barbarie et du Levant, La Haye.

تصرف المترجم في العلاقات الإسنادية وفي الوظائف النحوية للوحدات اللغوية و أثره على المنتج الترجمي

د. شابحة حمرون هني
جامعة الجزائر 2

ملخص

إن المترجم المقبل على نقل نص أدبي ما من لغة إلى لغة ثانية ملزم ضرورة باحترام نظامي هاتين اللغتين، لغة الانطلاق و لغة الوصول، فهو من هذه الناحية غير مطالب بمتابعة النص الأصل متابعة حرفية سواء أعلق الأمر بالوحدات المعجمية المؤتلفة في نسيجه اللغوي أم بطريقة انتظامها داخل تراكيبه، فالحرص الشديد وغير المبرر لغوياً على الوفاء لنظام لغة الانطلاق والذي يتجاهل فيه الناقل خصوصيات لغة الهدف من شأنه أن ينتج ترجمة عقيمة مبهمه ومستغلقة.

لكن هل يعني تجنب النتائج السلبية للحرفية أو للترجمة المعجمية أن يتيح المترجم لنفسه حرية غير محدودة في التصرف في العلاقات الإسنادية وفي الوظائف النحوية للوحدات اللغوية المؤتلفة في النص الأصل؟ وفي حالة عدم احترام المترجم لما تفرضه عليه قواعد لغة الانطلاق فكيف تكون انعكاسات ذلك على منتوجه الترجمي؟

يتناول هذا البحث هذه الإشكالية من خلال تحليل لأمثلة تطبيقية مستخرجة من نص روائي مكتوب بالعربية و منقول إلى اللغة الفرنسية.

الكلمات الدالة: المترجم، لغة الانطلاق، لغة الهدف، العلاقات الإسنادية، الوظائف النحوية

مقدمة

ينبغي ألا يوقر عنوان هذا البحث أن في ذهن القارئ أن الهدف منه هو الدفاع عن لون من الترجمة يتابع فيه المترجم النص الذي ينقله حذو القلدة بالقلدة بحثاً عن المقابل المعجمي للوحدات اللغوية التي يتألف منها النص الذي ينقله، فترجمة من هذا القبيل قد لا تصدق عليها هذه التسمية إلا تجاوزاً، من حيث ما يجده القارئ من عنت في الوصول إلى المضمون الذي من المفترض أن تقدمه له بوصفه محتوى قريباً من محتوى نص لغة الانطلاق. و ما يجعل البحث عن المقابلات المعجمية لعناصر النص الأصل و الاحترام الدقيق لمواضع ورودها في